ومعناها وسواء أكانت قد اطلقتها الاقوام المجاورة على كل العرب او جزء منهم أو انها مأخوذة من القوم انفسهم ، فالذى نراه قريبا الى وجه الصواب هو ان كلمة عرب منذ ظهورها (واقدم ما جاءنا من ذلك هو القرن التاسع ق. م، اى زمن شيلمنصر الثالث) اخذ يطرد استعمالها ويتسع بالتدريج فصار فى النهاية علما يطلق على سكان الجزيرة ، واتسع الاستعمال بعد هجرة العرب الكبرى منذ الفتح العربى ـ الاسلامى فشمل معظم اقطار الشرق الادنى وصار يحمل فى مفهومه عدا الاوجه القومية الاوجه الحضارية والثقافية . والذى عليه كثير من الثقات هو ان بلاد العرب عرفت منذ الجاهلية[١٣] باسم جزيرة العرب ، وان اسم العرب استعمل فى بلاد العرب نفسها قبل ظهور الاسلام بازمان . ولكن يرى بعض الباحثين ولا سيما (د. هملر D. H. Müller)[١٤]، ان اسم « عرب » لم يكن معروفا لسكان الجزيرة قبل الاسلام وان النبى ادخله وجعله تسمية قومية . والواقع من الامر انه توجد ادلة واشارات كثيرة تجعل هذا الرأى غير محتمل بل بعيدا عن الصواب . فقد جاء فى المآثر الجاهلية هذا الاسم ولا سيما فى اشعار القوم من ذلك العهد . ونحن وان كنا غير واثقين بصحة جزء غير قليل من الروايات المتعلقة بأشعار العصر الجاهلى وامر نسبتها وتواريخها ، الا ان نسبة بعضها الى بعض الشعراء المعروفين تبدو كثيرة الاحتمال ، فمن ذلك ما رواه الطبرى[١٥] الى « بكير » اصم بنى الحارث بن عباد يمدح بنى شيبان فى موقعة ذى قار :

ان كنت ساقية المدامة اهلها
فاسقى على كرم بنى همام
وأبا ربيعة كلها ومحلما
سبقا بغاية امجد الايام
ضربوا بنى الاحرار يوم لقوهم
بالمشرفى على مقيل الهام
عربا ثلاثة آلف وكتيبة
القين اعجم من بنى الفدام

ويؤرخ زمن هذا الشعر فى بداية القرن السابع للميلاد ، واذا صحت الرواية وصح التاريخ فيكون هذا دليلا على استعمال الكلمة قبل زمن النبى والحادثة المشار اليها فى الشعر حدثت فى موقعة ذى قار المشهورة ، فى موضع ما فى الفرات الاسفل ، وهو الموضع الذى كان يلتقى فيه العرب والاراميون والفرس ولذلك احتاج الشاعر ان يستعمل الكلمة القومية المميزة للعرب. واذا تذكرنا ان عرب وادى الرافدين الاسفل كانوا على اتصال دائم مع بنى جنسهم من عرب الغرب والجنوب ،

---

(١٣) الجاهلية اصطلاح غير متفق على تحديد زمنه ، ولكنه بوسعنا ان نجعل بداية العهد الجاهلى فى ٥٠٠ للميلاد ودام من ٥٠٠ ـ ٦٢٢ للميلاد . انظر (Cambridge Ancient History, I,)

(١٤) انظر
Neue Freie Presse (1894, 20th. April)
المشار اليه فى .
Encyclopaedia Biblica, p. 274.

(١٥) الطبعة الاوربية . الكتاب الاول ، الص ١٠٣٦ والص ٥٥ (المطبعة الحسينية المصرية . الطبعة الاولى) .

واخذنا بنظر الاعتبار تشابه الشعوب والقبائل العربية ، امكننا ان نستنتج مطمئنين ان كلمة «عرب» كانت مألوفة الاستعمال لتعنى القوم العرب وبلاد العرب وذلك فى الجزيرة نفسها منذ ازمان سبقت زمن ذلك الشاعر • ثم ان ورود كلمة «عرب» فى القرآن لا يمكن تفسيره كما ذهب (ملر) ، بكونه استعمالا جديدا ادخله الاسلام • وتوجد اشعار اخرى جاهلية ، بعضها منسوب الى امرىء القيس (فى حدود ٥٥٠ للميلاد) ، ورد فى بعض ابياتها كلمة عرب مستعملة صفة(١٦).

ومهما يكن من امر فانه عندما اطلق العرب فى الجاهلية وصدر الاسلام على بلادهم اسم جزيرة العرب لم يتمسكوا بالمعنى الاصطلاحى التام لكلمة الجزيرة ، فاطلقوها من باب التجوز، وتسمية العرب لاشباه الجزر جزرا قد ورد فى كلامهم كما اشار الى ذلك المقدسى • فقد سموا جزيرة الاندلس وجزيرة ابن عمر وجزيرة اقور بين الفرات ودجلة • ففسر بعدئذ بلدانيوهم اطلاق كلمة الجزيرة على بلاد العرب بان « البحرين بحر فارس وبحر السودان احاطا بناحيتيها، واحاط بجانب الشمال دجلة والفرات » (كما جاء فى اللسان) •

وقد ابدع العرب فى تقسيم جزيرتهم الذى جاء وفق طبيعتها ، فقد قسمها جغرافيوهم كما روى الهمدانى ، الى خمسة اقسام :ـ تهامة ، والحجاز ونجد والعروض واليمن وزاد ابن حوقل الى ذلك ثلاثة اصقاع : بادية العراق ، وبادية الجزيرة وبادية الشام • والجزيرة كلها نجد منتهى ارتفاعه فى الجنوب والغرب وينحدر نحو الشمال والشرق الى وادى الفرات وخليج فارس •

والذى عليه العلماء الآن ان احوال الجزيرة فى الدهور الماضية كانت تختلف اختلافا كليا من حيث وفرة المياه والخصب عما هى عليه الآن • ولما كان لتلك الاحوال الماضية وتغيرها تأثير عظيم فى العلاقات بين الجزيرة وبين العراق والاقطار المجاورة ، وكانت ذات صلة سببية بنشوء الحضارات الاصلية فى انحاء الشرق الادنى وبهجرات الاقوام ، فيحسن ان نذكر شيئا موجزا عما وجده البحث الحديث بالنسبة الى احوال الجزيرة الماضية وما طرأ على تلك الاحوال من تغيرات وتقلبات اساسية • فقد اجمع الباحثون على ان الجزيرة كانت خصبة كثيرة المياه والامطار فى العهد الجيولوجى المسمى « البلايستوسين » وكانت كذلك حتى العصر الحجرى المتأخر تقريبا، وانها كانت غير حالها الآن بل كانت من اخصب بقاع الارض واغناها ، وقد وجد الباحثون ، ومن بينهم «فيلبى»(١٧) انحارا من نوع المياه العذبة وادوات من الصوان وذلك فى جزء الربع الخالى الذى مر

(١٦) انظر الاغانى طبعة بولاق ٩ : ٥ ، ١٠، ١٤٩ •

(١٧) انظر
Dougherty, *The Sealand*, p. 160. n. 501.
وحول تقرير فيلبى انظر
Journal of the Central Asian Society, VII, p. 116 f
وانظر كذلك
Philby, *The Heart of Arabia* (esp. II. p. 31 f)

به • ويعتقد ان تاريخ هذه الآثار يرجع الى الازمان التى كانت فيها الجزيرة تتمتع بالخصب والمياه الدائمة فى عصور ما قبل التاريخ البعيدة ، فى العصور الحجرية القديمة والمتأخرة• وقد وجد فيلبى فى الربع الخالى بقايا بحر واسع ، هو السهل المنخفض المسمى الآن «ابوبحر»[١٨] • ويشبه بعضهم مناخ الجزيرة فى الدهور الجيولوجية السابقة ولا سيما فى دهر البلايستوسين بمناخ الهند الآن بالنسبة الى كثرة المياه والرطوبة[١٩] • ويذكر « برام طومس »[٢٠] انه صادف فى بحثه فى انحاء الجزيرة جملة من قيعان الانهار اليابسة فى الجزء الجنوبى من الجزيرة ، وتدل بقايا الحيوان التى جمعها من جبل القرا (Qara) على ان اصلها افريقى وتشير الى مناخ رطب يشبه مناخ افريقية الحار فى زمن قديم جدا • ويصادف هذا الزمن الذى يشير اليه برام طومس آخر عصر جليدى فى اوربة ، لعله قبل (٢٠،٠٠٠) سنة عندما كانت اوربة وامريكة الشمالية تغطيها الثلوج وغير مأهولة بالانسان • فعند ذاك كانت الجزيرة تتمتع بالعصور المطرة (Pluvial Period) وتزدهر فيها الحياة • ومن الامارات القوية على خصب الجزيرة ووفرة المياه فيها فى الازمان الخوالى (١) الوديان الكثيرة المنتشرة (٢) وجود

(١٨) انظر الاشارة الى ذلك فى
Dougherty, *ibid*, p. 173, n. 568

(١٩) *Cambridge Ancient History*, I, p. 39 ff.

(٢٠) Bertram Thomas, *The Arabs*, p. 350

فمان بعض البحيرات والبحار المندرسة كالبحيرة البابسه ، فرب تيماء وبقايا البحر « ابو بحر » الذى وجده فيلبى فى الربع الخالى • (٣) خرائب المدن الموجودة هنا وهناك فى تيماء وغيرها • (٤) ثم ان الرمال الكثيرة وما فيها من ترسبات الاملاح والمياه الملحة الكثيرة كل ذلك يربط اراضى الجزيرة باحوال بحرية • (٥) والى هذا كله فقد وجدت آثار العصور الحجرية فى الجزيرة كما وجد مهندسو شركة النفط فى «دوادمى» ، فى قلب المملكه العربية سكين حجر من العصر الحجرى • ووجد الدكتور « كورنوال » فى المنطقة الوسطى من الاحساء المعروفة بجبل «المدرة» وتعرف باسم « درع الشمال » فى تل هناك آثارا من العصر الحجرى القديم والمتأخر[٢١] • وكانت بوادى شمال افريقية مثل جزيرة العرب تتمتع كذلك بالخصب والمياه ، وفاست مثلها الجدب والجفاف الذى اخذ يحل فيها ويزداد منذ نهاية آخر عصر جليدى فى اوربة وشمالى امريكة وتشبه جزيرة العرب من الناحية الجيولوجية ارض مصر • وان اقدم الصخور فيها مؤلفة من حجر الغرانيت و « الشيست »[٢٢] • وفوق هذه الطبقة طبقة الاحجار الرسوبية وتبدأ بحجر الرمل النوبى فى « بطرى » ، وتظهر طبقاتها السطحية فى الجوف وتستمر بامتداد موضع سكة حديد الحجاز الى الجنوب ؛ وفوق هذه طبقات طباشيرية

(٢١) *Dougherty, ibid.*, 157 ff.

(٢٢) SCHIST وهو ضرب من الحجر المتبلور المعدنى ، ومعنى اسمه اللاتينى ـ الاغريقى « السهل الانفصام »

(Cretaceous) الى الشرق • وتوجد الاحجار الرسوبية المتأخرة فى وادى السرحان وفى البادية الناجمة الى العراق • وتوجد احجار « جوراسية » على وجه الارض فى سلسلة جبل طويق •ويرجع زمن البادية الشرقيه بالدرجة الاولى الى العهود الجيولوجية المتأخرة وتوجد احجار الغرانيت فى نجد ، فى جبل شمر ، وفى المرتفعات الغربية • وتقوم فوق الاحجار الرملية النوبية وطبقات الغرانيت القديمة صفحات عظيمة من حجر اللابه (Lava) وهى الحجارة التى سماها العرب « الحرة » واللابه • وهذه احجار من اصل بركانى • وثوران البراكين غير نادر فى الجزيرة فقد سجل واحد منها فى عهد متأخر قرب المدينة فى ١٢٥٦ للميلاد • وتظهر فى جنوبى الجزيرة الحجارة المنبلورة على طوال الساحل فى عمان •

ولا نجد فى بيان اسباب التغييرات والتقلبات الجوية التى حدثت فى جزيرة العرب وشمالى افريقية فائرت فى الجزيرة وشمل تأثيرها جميع انحاء الشرق الادنى أحسن من ان نقتبس كلام حجة فى الموضوع وهو (V. G. Childe) وقد استشهد به العلامة توينى[٢٣] فى بحثه عن اسباب نشوء الحضارتين الاصليتين فى وادى النيل ووادى الرافدين :

« فى الوقت الذى كان فيه شمالى اوربة مغطى بطبقات الثلوج مسافات بعيدة الى « الهارز » ، وجبال الالب والبرنيس مغطاة بجبال الثلج ، كان ضغط القطب الشمالى الشديد يسوق اعاصير الامطار الهسابة من المحيط الاطلنطيقى صوب الجنوب ، فكانت اعاصير الامطار التى تهب الآن على اوربة الوسطى تجتازها وتعبر الى حوض البحر المتوسط ومنطقة الصحارى الشمالية ، وتستمر فى سيرها دون ان تستنزفها جبال لبنان فتمر على بلاد ما بين النهرين وجزيرة العرب ، والى فارس والهند • وقد تمتعت الصحارى ، التى يلفحها العطش الآن ، بامطار منتظمة ولم تكن الامطار الذاهبة بعيدا الى جهة الشرق اكثر مما هى عليه الآن فحسب ، بل انها كانت موزعة على جميع فصول السنة بدلا من ان تكون مقصورة على فصل الشتاء •

« فينبغى ان نتوقع وجود المروج والمراعى والبطائح فى شمالى افريقية وجزيرة العرب وفارس ووادى نهر السند على نحو ما يزدهر الآن فى الشمال من حوض البحر المتوسط ••• وعندما كان الموث والكركدن والرنة ترعى فى فرنسة وجنوبى انكلترة ، كان يعيش فى شمالى افريقية (ولعله فى جزيرة العرب) حيوانات من نوع ما يوجد الآن فى زمبازى وروديسية •••

« وقد كان من الطبيعى ان تكون الاراضى الخصبة المعشبة فى شمالى افريقية وجنوبى آسية مأهولة (آنذاك) بالسكان ومزدحمة بهم ••• وانه لمن المعقول ان نحسب أن الانسان كان بامكانه ان يتقدم تقدما عظيما فى مثل هذه البيئة الملائمة لا بل البيئة المحفزة »[٢٤]

(٢٣) Childe, V. G., *The Most Ancient East*, chap. ii

(٢٤) Childe, V. G., *Ibid*, Chap. II

ولكن تغيرت هذه المنطقة الافريقية الاسيوية فى نهاية العصر الجليدى تغيرا كبيرا عميقا ، فاخذ يحل فيها الجفاف والجدب منذ ذلك الحين وزال فيها آخر عصر ممطر وحل فيها بدل ذلك عهد جفاف يقابل الفترة الجليدية الاخيرة فى اوربة وشمالى امريكة . ويرى « توينبى » [٢٥] فى هذا الجفاف عاملا مهما فى نشوء الحضارات المهمة فى وادى النيل ووادى الرافدين ، ويعد الجفاف استثارة للجماعات البشرية من جانب البيئة الطبيعية الآخذة فى الجفاف ، فانتقلت تلك الجماعات البدائية من طور الصيد وجمع القوت فى العصور الحجرية القديمة الى طور انتاج القوت اى الزراعة وتدجين الحيوان والى طور الحضارة ايضا . ونعود الى الاقتباس مرة ثانية عن (جايلد) : « ونحن الآن على ابواب انقلاب عظيم . اذ سنجد بعد قليل جماعات من البشر هم المهيمنون على موارد عيشهم ، بحيازتهم على الحيوانات المدجنة وزراعة الحبوب . ولابد لنا من ان نربط ذلك الانقلاب بالازمة التى سببها ذوبان الثلوج الشمالية وما استتبع عن ذلك من تقلص ضغط القطب الشمالى وتحول اعاصير الامطار من منطقة جنوبى البحر المتوسط الى دورتها الحالية فى اوربة الوسطى »[٢٦] .

ان هذا الحدث كان امتحانا عسيرا واستثارة قوية لسكان المنطقة المخصبة التى اخذ يحل فيها الجفاف ، وعندما جوبهوا بالجفاف المتزايد الذى نتج عن تحول اعاصير الامطار الهابة من الاطلنطيقى الى الشمال وذلك عندما تقلصت الثلوج الاوربية ، كان على الجماعات البشرية وهى لا تزال فى طور الصيد ان تسلك واحدا من ثلاثة سبل : كان بوسعهم ان ينزحوا الى جهة الشمال او الجنوب مع حيوان الصيد سائرين فى اثر المنطقة المناخية التى اعتادوا عليها من قبل . او انهم يثبتون فى موطنهم وهم فى شظف من العيش ، وذلك مما يمكن الحصول عليه من حيوانات الصيد التى استطاعت ان تعيش فى الجفاف او انهم — وهم لا يزالون كذلك فى موطنهم — يحررون انفسهم من الاعتماد على نزوات بيئتهم وتقلباتها بتدجين الحيوان والركون الى الفلح والزرع .

اما الذين لم يبدلوا موطنهم ولا اسلوب عيشهم فقد كان مصيرهم الهلاك لانهم لم يستجيبوا الى تحدى البيئة الطبيعية الجافة . والذين لم يغيروا موطنهم بل غيروا من اسلوب عيشهم صار منهم البدو فى بوادى « افريسية » (افريقية — آسية) . وكان من بين الذين اختاروا تغيير موطنهم دون تغيير اسلوب عيشهم جماعات انهزمت من الجفاف بان اتبعت سير اعاصير الامطار الى الشمال فوقعت فى ورطات امر بان تعرضت الى برد البحار الشمالية ، ووقعت الجماعات التى هربت صوب الجنوب الى منطقة الامطار الموسمية تحت تأثير مخدر هو الاطراد المناخى فى المنطقة الحارة . واستجابت جماعات اخرى من البشر الى تحدى جفاف البيئة بان غيرت مواطنها واسلوب عيشها على السواء . وكان هذا استجابة مضاعفة نادرة ، وكانت السبب

---

(٢٥) Toynbee. *A Study of History*

(٢٦) Childe. *ibid.*, Chap. III